

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

جميع الحقوق محفوظة للوزارة

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

سورة نوح مكية

وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَنْقُومُ إِلَيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا

(أن) في قوله (أن أنذر) وفي قوله (أن اعبدوا) تسمى أن التفسيرية ، وشرطها أن يتقدمها فعل فيه معنى القول دون حروفه ، وقد تقدم (أن) الأولى الإرسال ، وإرسال الله النبي إنما هو تحميلة قولاً إلهياً يبلغه قومه ، ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أنذر قومك ﴾ من دون (أن) على تضمين (أرسلنا) معنى القول ، فكأنه قال "قلنا أنذر" وقد تقدم (أن) الثانية قوله (نذير) ، وهو من الإنذار الذى معناه التحذير والتخويف بالقول . ويصح أن تجعل (أن) فى الموضعين مصدرية لا تفسيرية ، وتكون مجرورة بالباء ، والتقدير أرسلناه بأن أنذر أى بقولنا له أنذر ، وإنى نذير بأن اعبدوا أى بقولى لكم اعبدوا .

وقوله [مبين] فى صفة النذير من [أبان] اللازم إذا اتضح وانكشف ، فعنى ﴿ نذير مبين ﴾ نذير بين واضح البرهان لا لبس فى صدق إنذاره ، أو من أبان المتعدى أى نذير مظهر لأمره ، وكاشف عن سره ، ومعرب عن نفسه أنه نذير صادق مخلص ، وهكذا يقال فى أخواتها الواردة فى القرآن : (عدو مبين) ، (ساحر مبين) ، (ثعبان مبين) ، (خسيم مبين) ، (عربى مبين) ، (إفك مبين) ، (غوى مبين) .

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى

وقوله تعالى : ((يغفر لكم من ذنوبكم)) أول ما يتبادر للنفس أن (من) هنا لإفادة التبعض أى يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وقد حمل جمع من المفسرين الآية على هذا المعنى ، لكن يرد عليه أن قوم نوح إذا آمنوا به يغفر الله لهم جميع ذنوبهم لا بعضها ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، وأجيب عن هذا بأن في التبعض إيماء وتنبيه لقوم نوح إلى أن ما يغفر لهم من الذنوب إنما هى الذنوب التى كانت وقعت منهم قبل أن آمنوا ، أما ما يقع بعده فهو لاصق بهم ، وتلزمهم التوبة منه ، فالذنوب التى تغفر لهم بالإيمان إنما هى بعض من جملة ذنوبهم الصادرة منهم فى أيام حياتهم ، أو يقال إن الله يغفر لهم بعض ذنوبهم وهى التى تتعلق به تعالى ، أما ذنوبهم الأخرى المتعلقة بحقوق العباد فعليهم الاستحلال من أربابها .

وأرى أن (من) متعلقة بيغفر على تضمينه معنى " التحليل " يقال "حلل فلان فلانا" إذا جعله فى حل مما ارتكب وأذنب ، والمعنى هنا أن الله يغفر لقوم نوح إذا أطاعوه جاعلا لهم فى حل من ذنوبهم التى كانوا ارتكبوها .

وليس هذا فقط بل إنه تعالى يدرأ عنهم عذاب الاستئصال كالطوفان ونحوه إذا هم آمنوا بنوح ، ويؤخرهم إلى حين حلول آجالهم فيموتون الموت الطبيعية التى كتبها الله على بنى آدم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ((ويؤخركم إلى أجل مسمى)) و [المسمى] المقدر والمقرر فى علم الله تعالى . و [نوح] عليه السلام أقدم نبي رسول ذكره الوحى ووصف بحمود قومه وتكذيبهم له وما كابدوه منهم من العناء والإعنات حتى أغرقهم الله بالطوفان ، ولم يذكر عن نبي قبله ما ذكر عنه من هذا القبيل ، وما ذكر عن أبيه وأبى البشر آدم عليه السلام إنما هو شرح لكيفية خلقه وعرض أمره على الملائكة وما جرى له ولزوجته فى دار الجنان ، ثم هبوطهما ، ولم يذكر لنا الكتاب من أطوار ذريته وأحوالهم من حيث الإيمان والجود والطاعة والمعصية سوى ما كان من منازعة ابنه قابيل وهابيل ، ثم قتل الأول للثانى بغيا وحسدا . وقتله له أول مثال من أمثلة الظلم وقع فى البشر وقصه علينا الوحى .

وجاء في كتب الأوائل أن في زمن "أنوش بن شيث بن آدم" ابتدأت عبادة الأوثان ، وجعل الناس يسمون المخلوقات آلهة ، فكان "أنوش" يجمع أهل بيته وذويه للصلاة والتسبيح وعبادة الله وحده . وفي زمن إدريس عليه السلام — وهو أخنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينان ابن أنوش — كثر النفاق ، وانغمس الناس في الآثام ، فأنزل الله عليه وحيا في سفر ، هو صحف إدريس المشهورة ، ولم يبق من ذلك السفر سوى فقرة يقولون إنها وجدت في أطواء بعض الكتب المقدسة ، وهي : "وقد تنبأ أخنوخ على هؤلاء الأئمة فقال : هو ذا الرب يأتي في ربوات قديسيه لينفذ القضاء عليهم ويبكت جميع المنافقين على أعمال نفاقهم" .

أما في زمن سيدنا نوح — وهو ابن لامك بن متوشال بن إدريس — فقد شاع الكفر واشتد العصيان في البشر ، وأكثروا من الظلم والبغى والفساد ، فكان من خبرهم مع نبيهم نوح ما قصه الله علينا في فاتحة هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن .

وذكر في الأسفار القديمة أن نوحا ولد لسنة ١٨٢ من عمر أبيه "لامك" ، لسنة ١٠٥٦ لحده الأكبر آدم عليه السلام . ومعنى نوح : الراحة والتعزية . وكان عمر نوح ٥٠٠ سنة لما أخذ يلد أولاده ساما وحاما ويافث . وكان عمره ٦٠٠ سنة لما حصل الطوفان . وجميع أجداد نوح ولدوا في زمن جدهم الأكبر "آدم" . أما هو فلم يولد في زمنه ، فأجداده المذكورون أمكنهم أن يعاشروا جدهم آدم ، ويتلقوا الأخبار الصحيحة منه عن إبداع العالم وما علمه الله إياه ، وكثيرون منهم ولا سيما "متوشال" و "لامك" عاشروا ابنهم "نوحا" سنين متطاولة ، فلحقوه ما تلقنوا هم من جدهم آدم . ولما كان نوح قد عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة أمكن حفيده إبراهيم الخليل أن يعيش معه نصف قرن ونيفا ، ويتلقى عنه الأخبار الصادقة أو أن إبراهيم تلقى ذلك عن جده سام إن لم يكن تلقاه عن نوح . ولقنه إبراهيم لأولاده اسحق ويعقوب ثم موسى بسلسلة متصلة متقاربة الحلقات . وبعد أن نجا نوح من الطوفان جعل يحث الأرض ويفرسها كروما كما كان يفعل آباؤه . اهـ .

هذا منقول ما جاء في الكتب القديمة من خبر نوح عليه السلام . ونحن — معشر المسلمين — لا نصدقها ولا نكذبها ، بل نكل أمرها إلى العلم الحديث ، فهو الذي يتحصنها ويميز غثها من سميناها .

ويظهر من هذه الآيات التي افتتحت بها سورة نوح ، ومما تضمنته من خبره ومحاورته لقومه وشكايته إلى الله من بينهم وسوء صنيعهم - أن دعوته كانت مؤسسة على ثلاثة أركان :
 (الركن الأول) ترك عبادة الأصنام : (وَدَّ) و (سَوَّاع) و (يَغُوث) و (يعوق) و (نسر)
 التي كان يعبدها أهل ذلك الزمان من دون الله ، فكان نوح يأمرهم بخلعها وعبادة الله وحده ،
 وهذا معنى قوله (ان اعبدوا الله) .

(والركن الثاني) تقوى الله واجتناب المعاصي والذنوب والفواحش التي تفسد عليهم صحتهم
 وأخلاقهم وآدابهم ، وتفكك روابط الألفة وعُرا النظام بينهم ، وهذا معنى قوله (واتقوه) .
 (والركن الثالث) إطاعة ولي الأمر فيهم وهو نوح عليه السلام نفسه ، وهذا معنى قوله
 (وأطيعون) .

فالدعوة السماوية التي هي أول ما أنزل على البشر ، وبلغ إليهم ، هي مطوية في ثلاث كلمات
 فقط : إيمان ، تقوى ، طاعة : بالإيمان ينتظم أمر عقائد الأمة فتسلم من الخرافات والأوهام ،
 وبالتقوى ينتظم أمر أخلاقها وآدابها فتسلم من السقوط والفساد ، وبالطاعة ينتظم أمر اتحاد
 كلمتها وعلو شأنها فتسلم من الانحلال والضياع .

وما زالت الأمم على سُلَّم هذه الأركان السماوية تعلو في الحياة الاجتماعية وتسقط ، وترتقى
 في العزة والغلبة وتهبط . وآية ذلك التاريخ ، فهو الشاهد العدل ، وإليه في هذه المسألة القول
 الفصل .

ومحصل معنى الايات : أن الله أرسل نوحا إلى قومه ، وكلفه أن يبلغهم أمره السماوي
 وأن يذعنوا له ، وإن لم يفعلوا فإن عذابا أليما يوشك أن ينزل بهم ، فجاء نوح قومه وبلغهم
 أمر الله بأن يعبدوه وحده ، ويتقوه ، ويدعوا المعاصي ، ويطيعوا رسولهم فيما يأمرهم وينهاهم ،
 وأنهم إن فعلوا ذلك غفر لهم ذنوبهم ، وأخر عنهم العذاب الذي أوعدوا به ، فعيشوا أعمارهم ،
 ويتنعموا بالحياة إلى آجالهم .

إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٢﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٣﴾

وكان نوحا يعهد من قومه الريب والشك في أن لهم أعمارا محتومة ، وأجالا لله معلومة يموتون عندها ، ومن ثم أتبع قوله (ويؤخركم إلى أجل مسمى) بقوله : (إن أجل الله) المسمى والمقدر لكل حي من بنى البشر (إذا جاء) وقته وحينه (لا يؤخر) عنه بل ينفذ طبقا للمشئة الإلهية .

ثم أظهر نوح ، أسفه من أن قومه غلوا في الجهل والعناد حتى أنكروا هذه القضية البديهية وهى أن لكل أجل تكابا فقال : (لو كنتم تعلمون) أى ليتكم استعملتم عقولكم ، وتدبرتم الأمر بها فاهتديتم إلى ما قلت لكم ، وفى هذا التعبير من التوبيخ والتعير ما فيه .

ويصح ألا يكون المراد بالأجل فى قوله تعالى : (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) أجل العمر المسمى المذكور قبله ، بل يكون المراد به أجل العذاب المهيا لهم فيما إذا لم يؤمنوا بنوح ، فإن هذا العذاب له أجل ووقت معين ، لا يتأخر عنه ولا يتقدم ، وهو الذى يجله قوم نوح ويمارون فيه ، أما أجل الموت الطبيعى الذى يدور كأسه على كل واحد من بنى آدم فمن المستبعد أن يجهلوه إلى حد أن يماروا فيه وفى أنه إذا نزل بهم لا يؤخر ، فيكون معنى قول نوح (لو كنتم تعلمون) لو كنتم تعلمون ما لله من نفوذ المشئة والحول والقدرة فى إنزال العذاب بمنكرى وحيه ومكذبى أنبيائه .

ذكر فى الآيات السابقة كيف كان نوح يدعو قومه إلى عبادة الله وتوحيده ، ويعظهم ويخوفهم بأسه وعذابه أن يحل بهم إن هم لم يؤمنوا ، وحكى هنا شكايته إلى ربه عنادهم وتماديهم فى تكذيبهم وجحودهم ، وقال إنه كان يدعوهم (ليلا ونهارا) أى مستغرقا بجميع الأوقات ، فكان كلما زادهم دعوة وحضا على الإيمان زادوه (فرارا) وهربا وتفلتا منه يمينا وشمالا ، فلا يصغون إليه ، ولا يجتمعون عليه .

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧٧﴾

ثم وصف نوح نفورهم ، وصور حالة إعراضهم أبلغ تصوير فقال : إنهم كانوا إذا دعاهم إلى الإقرار بوحداية الله والعمل بطاعته ((جعلوا أصابعهم في آذانهم)) لئلا يسمعوا قوله ، وهذا شأن المكابر المعاند الذي يعلم أن للحق سطوة على الوجدان ، فهو يخشى أن ينفذ منه نور إلى قلبه ، فتزجج منه نفسه ، ويتنقص له عيشه ، ولذلك تراه يجتهد في أن يبتعد عن الداعي إلى الحق ، وما كان قوم نوح يكتفون بالفرار منه تارة ، ويسد مسامعهم تارة أخرى ، بل هم أحيانا كانوا إذا رأوه ((استغشوا ثيابهم)) ، أى تغطوا بها ، ووضعوا أرواحهم وفضول أكمامهم على وجوههم ورءوسهم كيلا يراهم هو فينبى لهم بالدعوة والنصح ، أو كيلا يروه هم فيتأذوا برؤيته ، وسماع دعوته .

وسين [استغشوا] إما للطلب ، أى طلبوا من ثيابهم أن تعشيهم وتغطيهم ، أو للجعل والصيرورة ، أى جعلوا ثيابهم أغشية وأغطية لهم .

ثم إن نوحا أخبر أن قومه يفعلون ما ذكر على وجه الدوام والثبات بحيث لم يعد يرجى منهم أوبة أو توبة ، وهذا معنى قوله : ((وأصروا)) . يقال : "أصر على الأمر" إذا لزمه وثبت عليه ، وأكثر ما يستعمل في الإكباب على الشرور وسيئات الأعمال .

أما إباء القوم ونفرتهم من نوح وسماع دعوته فسببه كبرهم وعزتهم وتعاضدهم في نفوسهم ، فهم يرون نوحا دونهم منزلة ومقاما ، فكيف يطيعونه ، ويخضعون له ، ويصبحون في عداد أتباعه ؟ وقد أشار نوح بتوكيد الفعل بمصدره مذ قال : ((استكبروا استكبارا)) إلى فرط كبرهم ، وغلوهم في عتوهم .

ومن لطيف تعريضه بحالتهم قوله : (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم) وهو صلوات الله عليه ما كان يدعوهم لأجل المغفرة ، وإنما كان يدعوهم لأجل الإيمان بالله ، فإذا آمنوا به غفر لهم ذنوبهم ، لكنه طوى ذكر الإيمان ، وجعل دعوتهم لمحض مغفرة ذنوبهم ، وفي مغفرة ذنوبهم فوزهم وسعادتهم ، فكم تكون الجهالة مستحكمة في نفوسهم إذا كانوا يستنون مسامعهم ، ويفطون على عيونهم ، كيلا يصلوا إلى السعادة ، وهي بين أيديهم وتحت أشعة أبصارهم .

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾

قال نوح في الآية السابقة: (رب إنى دعوت قومي ليلا ونهارا) وقال هنا: (ثم إنى دعوتهم جهارا) عاطفا بـثم، فأفاد أن هذه الدعوة الجهرية كانت غير الأولى، وأن بينها وبينها بعدا وتفاوتا؛ فإذا تقرّر أن الثانية كانت جهارا دل ذلك بالطبع على أن الأولى كانت سرية، فهو يقول: إنه في أول الأمر كان يتكتم في عرض الدعوة على قومه؛ فكان يدلى إليهم بالمناجحة سرا، مستغرقا في ذلك جميع وقته، ليله ونهاره، كما هو شأن الداعى الحريص على بث دعوته، الحاذق في أدائها العالم بطرق تبليغها، يتحين لها الفرص، ويختار لها الأوثق فالأوثق من الرجال، ولا يتسرع في إفشائها خشية أن يكاد لها، وتقام العوائير دونها، ومع كل ذلك لم تتجح دعوة نوح في القوم لفرط عتوهم، وتحجر العناد في نفوسهم، وهذا ما حمل نوحا على سلوك طريق آخر في الدعوة وهو مصارحتهم بها، وتبليغهم إياها جهارا من دون تكتم ولا خوف ولا تقيّة، وهو معنى قوله: (ثم إنى دعوتهم جهارا)؛ إذ ربما كان فرط تكتمه في أمره، واستخفافه بدعوته، يجعلهم يظنونها باطلة، وإلا فما الذى يمنعه من الجهر بها؟ أو يظنون أنه عاجز جبان عن تبليغها؛ فهو يكتمها خشية إيقاعهم به، وهذا مما يزيدهم نفورا وعتادا، ومن ثم قام نوح عليه السلام يصدعهم بدعوته صدعا، شأن الواثق من صدقها، المعتمد على ربه في حياطته وحياطتها، كأنه يقول: هاكم دعوتى أبلغكموها على رؤوس الأشهاد، فإن كان لكم سلطان بين على بطلانها فها توه، أو كنتم تريدون قتلى وصدى بالقوة فافعلوه.

إذا لم يكن لدى الداعى جرأة وشجاعة أدبية في عرض دعوته فإن دعوته تموت مهما كان واثقا من صدقها، بل مهما كانت هى حقا فى نفسها، وكم دعوة حق ماتت فى مهدها، وكلمة صدق نحدت بعد وقدّها (١) — بسبب تهيب الداعى المقاومين له، وما ينقصه من الشجاعة الأدبية فى تحمل الكوارث والشدائد التى تعترض سيره، ومن ثم جعل زعماء المدينة الحديثة الحرية الفكرية ركنا من أركان مدنيّتهم، وعمادا قويا لحضارتهم، ولو قال قائل: إن مدينة الغربيين، وظهور النوايغ فيهم، وعروجهم فى العلم والفن والصناعة والاختراع، ثم فى العزة والصولة والغلبة إلى الأوج الذى وصلوا اليه اليوم — إنما هو أثر من آثار الحرية الفكرية — ما كان غالبا ولا مبالغا.

(١) وقدّها مصدر وقّدت النار اشتعلت، وكل شئ يئلا فهو يقد، حتى الحافر إذا تلالا بصيصه.

ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

ولما صدع نوح قومه بدعوته هذا الصدع ، وباداهم بالنصيحة هذه المباداة — اضطربوا وحاصوا ، وعلوا أن الأمر جد ، وأن نبيهم غير عاجز ولا وكي ، وأنه على بينة من أمره ، وقوة في عزيمته ، وأنهم إذا تهاونوا في شأنه ، واستخفوا بدعوته — ربما علقت كلماته بنفوس بعض أبنائهم فيولعون بها ، ويشبون عليها ، وحينئذ يعظم أمرها ، ويستفحل خطبها فصاروا يدأرون نوحا عليه السلام ، ويحاولون إسكاته وصرفه عن الجهر إلى المذاكرة معه في السر ، فلم يأب نوح ذلك عليهم ، وجعل يصف لهم دعوته ، ويبليهم أمر الله في مجالس خاصة ، يعقدونها بينهم ، لكنه مع هذا بقي مصرا على الجهر بالدعوة والإعلان بها في الجماع ، وحيث يكون الدهماء والجمهور ، وهذا هو الطور الثالث من أطوار نوح في دعوة قومه ، وتبليغه رسالة ربهم إليهم . وقد أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ ثم إنى أعلنت لهم وأسرت لهم إسرارا ﴾ .

والعطف ثم يشعر بأن الإعلان والإسرار الأخيرين كانا طريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة ، غير طريقة السر المحضة ، وغير طريقة الجهر المحضة ، فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان ، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الإسرار .

ثم بين ما وعظهم به سرا وعلانية فقال : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا الخ ﴾ أتاهم من طريق القلب ، وتحريك العواطف ، والتذكير بأن ما هم فيه من انحباس الأمطار ، وما حرموه من الرزق والذرية وجذب الأرض وقولها إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده إرسال المطر ، وإغداق الرزق ، والإمداد بالأموال والبنين ، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا الإله الذي يقدر أن يمنحهم أمثال هذه النعم ، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها ، لا تضر ولا تنفع ، فقلوه : (استغفروا ربكم) ، أى آمنوا به ، واطلبوا منه أن يصفح عما فرط منكم ، فالأمر بالاستغفار يقتضى أمرا بالإيمان ، لأنه لا معنى لأن يطلب الواحد من الله غفران معاصيه وهو مقيم على كفره ، وتكذيب نبيه . وقد يقال في معنى (استغفروا ربكم) اطلبوا منه تعالى أن يغفر لكم الذنب الأكبر وهو الشرك به وعبادة غيره ، وليس معنى هذا سوى الإيمان بالله وترك الشرك ، ويلائم هذا المعنى قوله بعده : (إنه كان غفارا) ، أى إن ربكم من صفاته الرحمة فهو يرحمكم ، ويغفر لكم ما مضى من شرككم به وعبادة الآلهة غيره ، وإنكم إن تؤمنوا به وتستغفروه ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ ، و (يرسل) مجزوم جوابا لاستغفروا .

يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾

و (السماء) فى قوله (يرسل السماء عليكم) المطر . وهذا الاستعمال معهود متداول لدى أهل اللسان ، بل تطلق (السماء) أحيانا على الكلا الذى ينبت بهطول المطر عليه . وكل هذا تجوز وتوسع فى كلمة (السماء) التى معناها فى الأصل ما أظلل الإنسان من جهة العلو . وقد جاء المعنيان فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضايا

فقوله "نزل السماء" أى المطر ، وقوله "رعيناه" أى رعيانا السماء بمعنى الكلا والعشب الناتج عن المطر . وإعادة ضمير "رعيناه" على السماء بغير معناها الأول نوع بديعى يسمى الاستخدام . و [المذار] الكثير الدرور الغزير الانسكاب . و [الإمداد] الإعانة بالشئ والتتبع به على وجه الإفادة والانتفاع . و [الجنات] البساتين ذات الأشجار المظلة ، المثمرة المغلة .

ويفهم مما قاله نوح لقومه أن قومه كانوا مجدين محلين محارفين مشؤمين ، وأن فساد أمرهم ، وسوء أخلاقهم ، وغلبة الذنوب عليهم ، وإخلاصهم إلى البطالة والكسل ، وجهلهم بشئون الزراعة والصناعة وأقايين العمل — كل ذلك أدى إلى حرمانهم مما كان فى طاقتهم أن يحصلوا عليه لو آمنوا وأطاعوا ، واتبعوا الشرائع التى أتاهاهم بها نبيهم نوح من عند الله ، والتى يصلح بها شأنهم ، وينتظم أمرهم ، وتكثر ذريتهم ، ويستبحر عمرانهم .

فبالإيمان بالله ، وبالعمل بشرائعه ، وبطاعة نبيه — يتدربون على العمل ، وإنشاء البساتين ، وغرس الأشجار ، وحفر الترع والأنهار ، وبذلك تغزر محاصيلهم ، وتكثر أرباحهم ، وتتوفر مكاسبهم ، ويغدودق الرزق والمال بينهم ، وبترك المعاصى والفواحش والفجور ينتظم أمر البيوت ، وتتوثقروا بط الألفة والمحبة بين أفراد الأسرة ، ولا سيما بين الزوجين ، فيطيب إذاك العيش ، وتتوفر دواى الهناء ، ويبارك الرب سبحانه فى الذرية والبنين .

كانت هذه الأئمة التى هى من أقدم أمم التاريخ محرومة من كل هذه البركات ، لكنها كانت شديدة التشوق إليها ، والحرص عليها ، بفناءها نبيها نوح يرشدها ويعينها ، ويبلغها عن خالقها ما به صلاحها ونجاح طلبتها ، ويؤكد لها أنها إن أطاعته انتقلت بإذن خالقها إلى طور فى الاجتماع أكل ، ودخلت فى دور من أدوار الحياة أفضل وأمثل .

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾

بعد أن أطلع نوح قومه في الآيات السابقة بالحصول على بركات السماء وخزائن الأرض إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن، ومنه وحده تستمد تلك البركات — عاد فهز نفوسهم وعطفها نحو الإيمان، بأسلوب آخر من أساليب البيان، فقال: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارًا، وقد خلقكم أطوارًا؟﴾.

والعمدة في هذا الأسلوب استعمال العقل والاستدلال على وحدانية الله تعالى من طريق النظر والتفكير في خلق أنفسهم، ثم في خلق هذه الكائنات العلوية والسفلية، كما كان العمدة في أسلوب الآيات الماضية من القلب وتحريك عواطفه نحو شكر المنعم الذي في الشكر له والإيمان به استزادة من تلك النعم، وتعجيل في الوصول إليها.

و[الرجاء] الأمل. وقد عطف عليه في قول كعب: "أرجو وآمل أن تدنو مودتها". وقد تضعه العرب في موضع الخوف إذا صحبه جحد كما قال أبو ذؤيب "إذا لسعته النحل لم يرج لسعها" يصف مشثار العسل يقول إنه لا يخاف لسع النحل إذا هي لسعته لاعتياده ذلك منها.

والرجاء في لغة هذيل وخزاعة ومضر المبالاة يقولون لم أرج يعنون لم أبل.

و[الوقار] في الإنسان الرزانة والحلم يقال: "وقر فلان" إذا رزن. أما الوقار في جانب الله فمعنى العظمة. والتوقير التعظيم. يقول نوح لقومه: ما لكم أيها القوم لا تخافون الله عظمة، أو لا تبالون عظمة الله فتؤمنوا به، ولا ترهبون له جانباً فتدعوا عبادة غيره، وأنتم إذا نظرت في أنفسكم وفي الآفاق رأيتم من غريب صنعه، وعجيب إبداعه، ما يستدعي منكم تلك المخافة والرهبة.

والمراد [بالأطوار] ما عليه البشر في أفرادهم وجماعاتهم من حالات الصلاح والفساد، والسعادة والشقاوة، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة: تصنيف الناس إلى هذه الأصناف، وتخصيص كل فريق منهم بحالة دون حالة، وشأن دون شأن — دليل على وجود إله حكيم مدبر مريد يخص من شاء بما يشاء.

والذي عليه الأكثر أن المراد [بالأطوار] حالات التخليق غير المستقرة، التي يتدرج فيها الإنسان من حالة إلى حالة، وينتقل من طور إلى طور: طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، ثم عظماً قسيماً، قد كسى لحماً طرياً، ثم بشراً سوياً، وروحاً عبقرياً، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾

نبه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم أولا ، لأنها أقرب إليهم ، والاستدلال بها أيسر عليهم ، ثم أمال أعناقهم إلى الآفاق ، قائلا : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ، كأنه في هذا الاستفهام يُعجِّبهم من أمرهم في تأخر صدور الإيمان منهم ، مع أنهم سبق لهم أن رأوا السموات ، ووقفوا على شيء من عجيب صنعها ، وتسوية طباقها ، أو أنه نزلهم منزلة العميان الذين لم يروها لغلبة الجهل والذهول عليهم .

ونفهم من (السموات) ما كان يفهمه منها المخاطبون الذين نزل القرآن بلسانهم ^(١) ، وهو ما ارتفع فوقهم من الفضاء الأزرق الذى تسبح فيه الكواكب والنجوم في طرائقها ومداراتها . هذه الكواكب والنجوم المشاهد بعضها بالعين المجردة وبعضها بواسطة الرصد وأدوات المراقبة — لم تكن كلها في ربيع واحد من الفضاء ، بل عرف منذ عهد نوح عليه السلام انها متفاوتة في العلو والارتفاع ، بعضها أعلى من بعض ، كما أن بعضها أكبر جرما من بعض ، وبهذا الاعتبار كان الفضاء الذى تسبح فيه تلك الأجرام الهائلة طباقا ، طبقة فوق طبقة ، فالذى يرى السموات يشهد بعينه وعقله أنها ذات طبقات متعددة ، وقد عرفت الأمم منذ ذلك العهد أن تلك الطبقات سبع ، وأن في كل طبقة كوكبا متيرا يدور فيها ، فأصبحت مدارا له ، وفلكا يتجلى فيه نوره ، وقد عرف نوح من قومه يومئذ أنهم بلغوا من العلم إلى معرفة تلك الكواكب السبعة ، كما عرفوا منازلها وطبقاتها ، وطرائقها ومداراتها .

والرؤية المستفهم عنها في قوله (أَلَمْ تَرَوْا ؟) إنما هي الرؤية العلمية التى تكون بالاستدلال والاكتساب ، وإعمال القياس والحساب ، وليست هي الرؤية البصرية التى تكون بمجرد العين ؛ فإن العين وحدها لا يمكن أن ترى سموات سبعة ، واحدة فوق أخرى ، وإنما ترى جلدا واحدا فيه نجوم متعددة .

ومحصل القول أن البشر في زمن نوح — وهو الزمن الذى عاش فيه الكلدانيون المشهورون بعلم الهيئة ورصد الكواكب وعبادة النجوم ويسمون الصابئة أيضا — كانوا توصلوا إلى معرفة الكواكب السبعة السيارة ، وقد قسموا الفضاء باعتبارها إلى طباق سبع ، وبقيت هذه المعرفة

(١) قال ابن جرير في المحقق (جزء ١٦ صفحة ١٨١) ما نصه : "والسما والسماء مدار النجوم" وقد مر مثله في صفحة ٦.

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾

متوارثة في الأمم جيلا بعد جيل حتى زمن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، نفخوطوا عن أمر السماء بما اعتادوا أن يتخاطبوا به فيما بينهم ، وهو أن السموات سبع ، وأن طباقها طبقة فوق طبقة . إلى هذا القدر بلغ علم الأمم في الزمن القديم ، ولا يلزم منه أن تكون الكواكب والأجرام السماوية الكبرى في الواقع ونفس الأمر سبعة فقط ، ولا أن يكون الفضاء كذلك سبع طبقات فقط ، بل إن الله عنده من علم السماء وعدد أجرامها وتأليف طباقها ما لم يصل إليه علم البشر ، اللهم إلا ما علموه في العهد القديم من أمر السموات السبع كما وصفنا ، وإلا ما علموه في العصر الحديث من وجود بعض الكواكب السيارة الأخرى ، وبعض الطبقات والمدارات الأخرى . ولا مانع أن يطلع الله البشر في المستقبل على غير ذلك من الأجرام والطبقات ، ولكن خطاب الله للأمم ووحيه إليها إنما يكون بما تدركه عقولها ، وتلمسه حواسها ، ويبلغ إليه تصورهما في عهد إنزال الوحي ، ويكفي في الدلالة على المطلوب .

وقوله تعالى : (وجعل القمر فيهن نورا) فيهن أى في السموات السبع ، ولا يضره أن يكون القمر في الواقع ونفس الأمر في أدنى تلك السموات وأقرب طبقاتها إلينا لا فيها كلها ؛ لأنه أسلوب عرف التخاطب به بين أهل اللسان ؛ فهم يقولون : إن فلانا يسكن المدينة الفلانية يريدون أنه ساكن في حى من أحيائها وجهة من جهاتها لافى كل حى وجهة منها . وكذلك هنا ما قال : إن القمر في السموات أى في مجموعها ، الصادق باستقراره في واحدة منها ، ومثله قوله تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) مع أنه إنما أنزل في ليلة واحدة من ليالى رمضان ، وهى ليلة القدر ، لا في رمضان كله .

ومن مواضع العجب أن الكتاب لم يقل عن الشمس إنها جعلت فيهن أى في السموات كما قال عن القمر إنه جعل فيهن ، وقد عرف أخيرا أن الشمس هى مركز النظام الشمسى ، وأن السيارات السابجة في سمواتها ومداراتها تحتف بالشمس ، وتدور حولها من كل جانب ، فلم تعد الشمس بهذا الاعتبار معدودة في السيارات السابجة في السموات ، المرتبة طبقات طبقات . أما القمر معدود فيها ، وله مركز وموقع من تلك السموات .

[والسراج] آلة الاستصباح المعروفة ، وتسمى الشمس نفسها سراجا لأنها سراج النهار يستصبح بها الناس فيه كما يستصبحون بالسرج والمصابيح في ليلهم ، ولم يسم القمر بهذا الاسم [أى

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾

باسم سراج] لأن الارتفاق بنوره في الليل أقل بكثير من الارتفاق بنور الشمس في النهار، وإنما هو نور يستضاء به في الجملة ، كما يعلم به عدد السنين والحساب ، وكما أن التعبير عن الشمس بالسراج أفاد أن نورها أشد وأتم وأكمل في الانتفاع من نور القمر كذلك قوله تعالى في الآية الأخرى : (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) أفاد ذلك أيضا ، وذلك لأن الضياء أقوى من النور في الأعم الأغلب من إطلاق الكلمتين . وهذا قد يؤيد ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها ونور القمر عرضي مكتسب من نورها .

ثم رجع نوح فأمال أعناق قومه عن السماء إلى الأرض ، وحضهم على التفكير في عجائب ما فيها من الشؤون والأطوار ، فمن ذلك خلق المخاطبين أنفسهم ، وكيف سلوا من تراب الأرض كما يسأل النبات ، والأصل في معنى الإنبات إخراج الله النبات من الأرض ، أما بنو آدم فيخرجهم خالقهم من بطون أمهاتهم أطفالا ، ثم ينشئهم بما يغذيهم من اللحوم والنباتات لإنشاء يبلغون به أشدهم ، لكن لما كان إخراجهم وإنشأهم بشرا سويا إنما يتم بتناول آبائهم وأمهاتهم ثم يتناولهم هم بعد الولادة - عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض - كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض مباشرة ، فلذا سمي خلقهم وإنشاءهم إنباتا . وهذا يشير إلى وحدة عالمي الحيوان والنبات واشتراكهما في كثير من النوااميس التي تتعلق بالحياة العامة ، كالتلقيح والتوالد والاقنيات والتنفس ، وتطورات أخرى من هذا القبيل ، ومن ثم قال بعض الحكماء : إن الإنسان شجرة اقتلع بجذره من الأرض فشي ودلف ، وإن الشجر إنسان غاص بقدمه في الأرض فنبت مكانه ووقف .

فمعنى قوله (والله أنبتكم من الأرض نباتا) أنكم (١) وإن كنتم بشرا في حقيقتكم فأنتم نبات باعتبار انكالك في حياتكم الحيوانية على عناصر الأرض كاتكال النبات في حياته النباتية عليها ، فالله الذي أنبتكم هذا الإنبات ، ويسر لكم من عناصر الأرض الأرزاق والأقوات ، ثم خصكم تفضيلا منه وكرما بالحياة الحيوانية ، ثم زادكم كمالا بإفاضة الحياة الإنسانية ، ثم آثركم بمواهب

(١) لم أعد أكلف نفسي عناء تصحيح أمثال هذا التركيب (إنه وإن كان كذا فهو كذا) بعد أن سمعت الجاحظ

في كتابه الحيوان (س ١٤ ص ٤٦ ج ١) يقول (لأنه وإن كان كتابا واحدا فإنه كتب كثيرة) على أن النحرى الفطن لا يصعب عليه توجيهه وتطبيقه على القواعد .

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾

النفس والعقل وسائر الحواس الظاهرة والباطنة — الإله الذى هذا مبلغ عنايته بكم ، وذلك قدر إنعامه عليكم — يحذر بكم أن تعبدوه وحده ، وترهبوا وعيده ووعده^(١)

و (نباتا) مصدر [نبت] ، الثلاثى ، لكنه أقيم مقام مصدر [أنبت] الرباعى ، وجاء تأكيداً له ، ف قيل أنبتكم نباتا مكان أنبتكم إنباتا . وقال بعض المدققين هو مصدر الثلاثى ، وجعله من نوع الاحتباك البديعى ، وقال إن أصل الكلام هكذا "والله أنبتكم من الأرض إنباتا فنبتكم نباتا" فهما فعلان لكل مصدره . لكنه حذف المصدر الأول لدلالة فعله عليه ، وحذف الفعل الثانى لدلالة مصدره عليه ، وبذلك جاء الكلام موجزا فى مبناه ، موفرا وافية فى معناه .

أما وقد ذكر نوح لقومه عجيب صنع الله فى إخراجهم من الأرض لإخراج النبات فقد تمهد له السبيل إلى تذكيرهم بأمر البعث الذى كان القوم ينكرونه فقال :

﴿ثم يعيدكم فيها﴾ ، أى مقبورين فى الأرض بالممات ، كما أخرجكم منها منشئين بالإنبات .
 ﴿ويخرجكم إخراجا﴾ ، أى من الأرض ثانية بالبعث بعد اللبث الطويل فيها . وأصل النزاع مع المخاطبين فى قضية الإيمان بالله التى لا يسامون بها ، لكن نوحا لما استدل على وجوب الإيمان بما كان من غريب صنع الله فى إيجادهم مستلّا لهم من الأرض استلال النبات — ناسب أن يستدل لهم بهذا الدليل عينه على قضية البعث وإحيائهم الحياة الثانية ، فقال لهم : إنه تعالى كما أنبتكم من تراب الأرض يعيدكم بالموت إلى ترابها ، وسيخرجكم بعد منها أحياء للعرض والحساب ، والثواب والعقاب . وإذا تأملتم فى إنباتكم وإخراجكم من الأرض للمرة الأولى سهل عليكم تعقل إخراجكم من الأرض بعد الممات وإنباتكم منها بحسب الناموس الذى يضعه الله إذا شاء لهذا الإنبات الثانى .

(١) (ووعده) منصوب بفعل محذوف على حد (علفها تبنا وماء باردا) أى وتأملوا وعده .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

أشرنا آنفاً إلى أن الإنسان إذا كان يشترك مع النبات في بعض الخصائص والأحوال فإنه يفارقه بالمواهب السامية التي مازاه الله بها ، ومن تلك المواهب حريته في الانتقال والمشي على سطح الأرض من جهة إلى جهة ، ومن رجا إلى رجا ، ولم يخلقه سادكا ^(١) بمكانه كالنبات لا يبرحه إلى أن يموت . وتشبيهه بالنبات هو الذي وطأ السبيل بين يدي ذكر النعمة الجلى وهي جعل الله الأرض بساطا للبشر يتقلبون عليها كيفما شاءوا ، ما داموا خلقوا على غير خلقة النبات ، فهم يضررون فيها ذات اليمين وذات الشمال للسياحة والترهة وطلب العلم وكسب المال .

و [البساط] ضرب من الطنافس معروف ، سمي بساطا لكونه يُسَطُّ ويُفَرَش على الأرض فيجلس عليه الجالس كما يطيب له . وهكذا الأرض : بسطها الله للبشر ، ومهدا تحت مواطن أقدامهم ؛ لأجل أن يسلكوا منها سبلا فجاجا توصلهم إلى أغراضهم ، وقضاء مصالحهم .

و [السبل] جمع سبيل ، وهو الطريق ، و [الفجاج] جمع فج ، وهو الطريق الواسع . والفج في أصل معناه أن تباعد الناقة بين رجليها للخلب ، ويباعد الرجل بين رجليه عند إرادة المشي أو لأمر آخر ، فالطريق الفج كأنه لا تساع ما بين جانبيه قد تَفَاجَّ كما تَتَفَاجُّ الناقة عندما تُخلب ، وبهذا الاعتبار صح أن تكون الفجاج صفة للسبل ، كأنه قيل سبلا متسعة متباعدة الأطراف ، وجاء في كلامهم : ” قطعوا إليك سبلا فجاجا ، حتى أتوك فجاجا “ . وأكثر ما يستعمل الفج في الطريق الواسع بين جبلين ، لظهور التفاج والتباعد بين سفحيهما ، لكنه يستعمل أحيانا في مطلق الطريق الواسع كما ذكرنا ، وعليه ظاهر الآية ^(٢) .

وصف نوح في الآيات السابقة كيف كان يدعو قومه إلى الإيمان بالله ، وبأى الأساليب كان يحذرهم وينذرهم ويحثهم عليهم ، وكيف كانت أحوالهم إزاء دعوته من الإصرار وسد الآذان واستغشاء الثياب ، مفرغا كلامه في قالب عرض الأمر والشكوى إلى الله الذي أرسله بهذه الرسالة إليهم ، وقد انتقل في هذه الآيات إلى ذكر نتيجة الدعوة وأنها لم تنجح في القوم ، وبيان السبب في عدم نجاحها ، موردا ذلك كله أيضا في ضمن الشكوى إلى الله العالم بما كان منه ومنهم ،

(١) صدك به كفرح : لزمه ولم يفارقه ، ومنه قول الحريري : ” فسدت بمكاني ، وجعلت شخصه قيد عياني “ .

(٢) وفي المخصص (جز ١٠ صفحة ١٢٦) الفج والجمع الفجاج ربما كان طريقا بين حرفين مشرفين ، وربما كان طريقا عريضا ، وربما كان ضيقا ، وإذا لم يكن طريقا كان أرضا كثيرة العشب والكلا اه وحرف الجبل أعلاه المحدد .

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾

و بجميع أسبابه وعلله ومصايره . لكن المخاطبين وهم قريش كانوا لا يعلمون ، فلهم من خبر هؤلاء القوم وما حل بهم من العقوبة الإلهية أكبر واعظ لو كانوا يعلمون .

يقول نوح إن قومه عصوه وانصرفوا عن سماع دعوته إلى سماع كلام رؤسائهم فاتبعوهم وأطاعوهم ، وعدل عن ذكر هؤلاء الرؤساء المتبوعين بأسمائهم إلى الكناية عنهم باسم الموصول وهو (من) ليتوصل بصلته إلى بيان سبب مقاومة الرؤساء له ، وتمكنهم من استتباع القوم وإضلالهم ، ذلك أن أولئك القادة كانوا على جانب عظيم من المال والولد ، فلهم من سعة مالهم ، وعصبية أولادهم قوة يقاومون بها نوحا ، وهم يعلمون أن إيمانهم به يجعلهم تابعين له فيأمرهم وينهاهم بما يريد في أموالهم وأولادهم . فلا يمان بنوح في زعمهم مضية للمال ، محقة للعصية ، مذكرون خولا وأتباعا في قومهم بعد أن كانوا سادة متبوعين . وشأنهم في هذا شأن عطاء كل أمة دعاها داعي الحق إلى طاعته ، والعمل بنصيحته . هذا هو الخسار الذي قال نوح عليه السلام إنه أصاب عطاء قومه . ومنشؤه مالهم وولدهم ، وهم بالمال والولد تمكنوا من صرف قوم نوح عن استماع دعوته ، والإيمان بما جاء به . كانوا يهددون أولئك الضعفاء بعصبيتهم ، وأبناء عشيرتهم ، وكانوا يحدون من المال والثراء ما يساعدهم على غرضهم ، بل ربما كانوا ينفقون من أموالهم في شراء ذمم أولئك المساكين ، وامتلاك قلوبهم ، فيرشونهم ، ويدلون إليهم بالصلوات والهدايا ، ويقىمون لهم الولائم والمآدب . فانظر كيف توسلوا بما أوتوا من المال والولد إلى إضلال قومهم ، والتلاعب بعقولهم . لا جرم أنهم ازدادوا بذلك خسارا على خسار ، وأحلوا قومهم وأنفسهم دار البوار .

هذه الطريقة التي اتخذها أولئك الرؤساء في مقاومة نوح وإضلال قومهم كانت مكرًا وخداعًا: مكرًا بنوح من جهة أنهم ما كانوا يطلعونه على كل ما يعملون في السر لمقاومة دعوته ، وإحباط سعيه ، ومكرًا بقومهم من جهة أنهم كانوا يخفون عنهم الحقيقة ، ويحولون بينهم وبين الإيمان بنوح والتصديق بما أتاهم به من الوحي ، مظهرين لهم أن الخير كله فيما يشيرون به عليهم ، من ترك عبادة الله والبقاء على عبادة الأصنام التي هي دين آبائهم . وهذا معنى قول نوح عليه السلام : ((ومكرا مكرًا كبارًا)) وأى مكرًا أكبر مما فعلوا . وهو معطوف على صلة من ، أى اتبعوا من لم

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿١٣﴾

يزده ... ، واتبعوا من مكروا... ، و[كجارا] بمعنى كبير قرئت بتشديد الباء وتخفيفها . وكلما زادت حروف الكلمة زاد معناها عظمًا أو شدة ، فيقال : مكر كبير وكُجَار وكَبَّار ، كما يقال : رجل طويل وطَوَال وطَوَال ، وأمر عجيب وعَجَب وعَجَّاب .

ومن طرق المكر التي كان يسلكها أولئك الرؤساء في إضلال القوم حضهم لهم على الثبات في عبادة معبوداتهم ، فكانوا يقولون لهم بهيئة المتنصح المخلص : ﴿ لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾

(لا تذرنا) لا تدعن ولا تتركن . وكانت للقوم آلهة كثيرة لا تحصى ، أكبرها شأنا ، وأعلاها منزلة — هذه الخمسة : ودّ وسواع وأخواتهما . فكان الرؤساء يعمون في النهي عن ترك الآلهة ، ثم يخصصون منها هذه الخمسة بالذكر ، وهذا من شدة كفرهم ، وفرط تعنتهم في مكرهم .

والخمسة المذكورة أسماء آلهة أو أسماء أصنام أو أسماء أسلاف صالحين للقوم كانوا يعبدونهم من دون الله . ولعبادة الأوثان في الأمم القديمة طريقتان :

(الطريقة الأولى) مذهب الصابئة ، وأساس هذا المذهب الاعتقاد بأن في الأجرام السماوية أرواحا متصلة بآلئنا الدنيوى اتصال عناية وتدير ، وتبديل وتغير ، ولما كانت الأجرام السماوية مختلفة في أحوالها وأشكالها ، متباينة في أطوارها وأقذارها ، وهى غائبة عنهم ، بعيدة عن مواقع أنظارهم ، وهم في كل وقت في حاجة إلى التبرك بها ، واستمداد المعونة من روحانياتها — رأوا أن يصطنعوا لكل منها جسما يمثلها ويدنيه من تناول الفكر والتصور ، فالتخذوا الأصنام ، ونحتوا الأوثان ، وعبدوها من دون الله . ويقال إن هذا الدين — دين الصابئة — هو أقدم الأديان البشرية الباطلة على الإطلاق . وبقى حتى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقضى عليه شر قضاء ، وعلم بدين آباءه : آدم وإدريس ونوح ، وهو عبادة الله وحده . ثم انتقل دين التوحيد من نوح إلى أولاده ، وبواسطتهم انتشر بين الأمم ، من عرب وعجم ، ولعل ودا وسواعا وبقية الخمسة التي عبدها قوم نوح كانت أصناما منحوتة على اسم بعض الكواكب ، فإن منها (نسرا) وهو اسم لكوكبين سماويين : يقال لأحدهما "النسر الواقع" وللآخر "النسر الطائر" . وللاشور بين خلفاء قوم نوح إله

يسمونه "نسروخ" أى النسر العظيم ، وكان له هيكل فى عاصمتهم "نينوى" وإليك ترى فى آثارهم اليوم صورة إنسان برأس نسروجناسه ، فله رمز إلى ذلك الإله .

(والطريقة الثانية) لعبادة الأوثان هى قيام أفراد من البشر ينبغون فى نبوة أو كهانة أو حكمة أو بطولة أو خلق من الأخلاق العالية بصورة غير معهودة فى الناس الآخرين ، فيفتن بهم أقوامهم ويرون أن هذا التفوق والنبوغ لم يكن إلا لخلول روح إلهى فيهم ، فيعبدونهم فى حياتهم ، وفى الأعم الأغلب بعد مماتهم ، ثم يتخذون على مثالهم صوراً أو أصناماً أو موائل أخرى يذكرونهم بها ، ويتقربون بالنذور والبخور والصلوات وضروب العبادات إليها على نحو ما يفعل الصابئة فى عبادة الكواكب ، وقد ضرت عبادة النواجيج بجرانها فى جنبات الأرض ، فلم يعد يقوى على محوها الدين السماوى نفسه ، وقد لا يقوى إلا بمعونة العلم ، وانفكك العقل من قيود الوهم . ولعل وثنية قوم نوح وعبادتهم لود وسواع كانت من هذا القبيل ، وقد بقى لعبادة هذه الأصنام أثر فى جزيرة العرب أو فى بلاد اليمن خاصة حتى زمن البعثة المحمدية ، فكان (ودّ) لبني كلب بلومة الجندل ، وهو على صورة رجل . و (سواع) لهمدان أو هذيل ، وكان على صورة امرأة و (يغوث) لمذحج أو غطفان من مراد فى سبأ ، وكان على صورة امرأة . و (يعوق) لمراد أو لهمدان ، وهو على صورة فرس . و (نسر) لجيزر أو لذى كلالع من حمير ، وهو على صورة نسر . وكان العرب يسمون أولادهم بعبد ودّ ، وبعبد يغوث .

ومن تأمل ما قلناه فى مناشئ ظهور الوثنية فى البشر فهم السرف فى كون الدين الإسلامى يحرم إقامة الصور ونصب التماثيل وتشييد القبور وتخصيصها على رمم العظماء ، وفى حديث على رضى الله عنه : "أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لى : "لا تدع صنماً إلا طمسته ، ولا قبراً إلا سوّيته" اه ، فإن الوثنيين كانوا يتخذون من موائل القبور والأصنام ذكرى لرجالهم الصالحين وليست ذكراهم لهم ذكرى عظة وإعتبار ، وإنما هى ذكرى استمداد أسرار ، واقتباس أنوار ، واستغراق واستحضار ، واستزاق واستمطار ، والتماس منافع واستكفاء أضرار ، فسدّ دين الإسلام الذريعة بتحريم هذه الموائل خشية أن تسترهب ضعفاء العقول وتستهيهم ، ومن مزلق الوثنية تقرّبهم وتدينهم . فله الإسلام ما أعدله فيما شرع وحكم ! وما أوضح نهجه فيما خط لنا من الهداية ورسم !!

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾

وقوله : ((وقد أضلوا كثيرا)) من تنمة كلام نوح عليه السلام وشكواه إلى ربه ما لاقى من أولئك الرؤساء الذين مكروا بقومهم ، وزينوا لهم عبادة الأوثان ، فهو يقول : إن هؤلاء الرؤساء يارب كانوا من قبل (قد أضلوا) خلقا (كثيرا) غير هؤلاء القوم المساكين الذين أدعواهم إلى الإيمان اليوم ، أو أنه يريد أن أولئك الرؤساء بما توفر لديهم من قوة المال والولد والمكر والتسويل أضلوا وما زالوا يضلون خلقا كثيرا . وفي جملة من أضلوا قومي هؤلاء .

وكأن نوحا عليه السلام انتبه إلى أن صدور هذه الشكوى منه إلى ربه ربما أوهم غفلته أو ذهوله عن سنن الله ومشيبته في خلقه ، فخم شكواه بقوله : ((ولا تزد الظالمين إلا ضلالا)) .

وظاهر قوله : ((لا تزد)) الدعاء إلى الله أن يزيد الظالمين ضلالا . وهذا مستبعد من نوح أبي الأنبياء الذين هم مثال الرفق بالبشر والرحمة لهم والعطف عليهم ، وإنما هو في الظاهر دعاء وطلب ، وفي المعنى إخبار عن استمرار مشيبته تعالى في خلقه عاملة ، وبقاء سننه مطردة شاملة ، لا تشذ ولا تتخلف ، كأنه يقول : إنك يارب في عدم هدايتك قومي إلى الإيمان بك إنما تتم مشيبتك القديمة ، وتنفيذ سنتك الحكيمة ، فإن قومي الذين ظلموا بعدوهم عن محجة الحق سيقون في ضلال عنها ما داموا في ظلمهم وتعسفهم ، بل إنهم كلما ازدادوا إغلا في هذا الطريق الذي أخذوا فيه ازدادوا ضلالا وبعدا عن محجة الحق ، شأن الذي يخرف عن رأس الجادة ، فإنه كلما أوغل في الناشطة^(١) التي سلكها ابتعد عن الطريق الأعظم ، حتى يتورد حتفه . فهذا كما ترى سنة إلهية ركب الله عليها هذا الكون ، فلا تخالف أمة من الأمم أمر الله ، ولا تدأبر سننه ، ولا تستخف بنواميسه — حتى تضل عن طريق السعادة ثم تهلك . وعلى العكس الأمة التي تعمل بأمر الله ، وتراعى سننه ونواميسه . فنوح عليه السلام يأسف لكون أمته من الفريق الأول ، فهو بعد أن وصف حالها ، وندب مآلها — عاد فقال : لَتَدُمُ مشيبتك يارب ولتنفذ إرادتك ، ولتستمر سنتك .

(١) هي الطريق ينشعب من الطريق الأعظم بئمة أو ميسرة .

أما الروايات والأساطير الأخرى المتعلقة بهذا الطوفان فما لا يجب علينا الإيمان به إيماناً جازماً ، وإنما نكل أمره إلى الله تعالى وإلى التحقيق العلمى ، حتى إن مسألة شمول الطوفان لجميع أقسام الأرض وعدم شموله لم يرد عنها في الكتاب نص قطعى . وكلمة (أرض) في قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك) ليست نصاً في الدلالة على جميع أجزاء سطح الأرض ، وإنما هي تستعمل أحياناً كثيرة استعمالاً فصيحاً في الجهة الواحدة من جهات الأرض ، ففي سورة يوسف : (قال اجعلنى على خزان الأرض إني حفيظ عليم) . (وكذلك مكأ ليوسف في الأرض يتبأ منها حيث يشاء) والمراد بالأرض في الموضعين أرض مصر لا الكرة الأرضية كلها . وليس هذا ممارسة منا في صلاحية قدرة الله أن يعم سطح الأرض كله بالطوفان ، وإنما نحب أن نقف في العقائد خاصة على ما جاء في صحيح النقل ، وارتاح إليه صريح العقل .

هذا ولم تنفرد الكتب السماوية بذكر حادثة الطوفان فقد ورد ذكرها أيضاً في كتب الصين واليونان ، وهي معروفة عند أميركا الشمالية والجنوبية . وقال بعضهم : إنه وجد أثر كارثة الطوفان في جميع الأقطار وفي جميع تقاليد الأمم ماعدا السودان فإنه ليس في بلادهم ولا في تقاليدهم ما يدل على حدوثه . وذكرت الحادثة في آثار الاشوريين ؛ فقد عثر على صحيفة آشورية تصف تلك الحادثة ، وكان الكلام فيها وارد على لسان نوح عليه السلام مذاستقرت السفينة على الجودى فأرسل الغراب فلم يعد ، ثم أرسل الحمامة فعادت مبشرة بانكشاف اليابسة ، كما جاء مفصلاً في التوراة ، وهاك ترجمة ما قالته الصحيفة الآشورية :

” في اليوم السابع أرسلت الحمامة ، فغابت ولم تجد مقراً فرجعت ، ثم أرسلت سنونوة فغابت فلم تجد مقراً فرجعت ، ثم أرسلت غراباً فغاب ورأى انخفاض الماء فأكل وسمح وتاه ولم يعد ، ثم أرسلت الحيوانات إلى جهات الرياح الأربع ، وسكنت سكية ، ثم بنيت مذبحاً على قمة الجبل ، وقطعت سبعة أعشاب ، وتحتها وضعت صومر^(١) وصنوبر وسمقر ، فاجتمع الآلهة عند فوحن الرائحة : اجتمعت كالذباب عند الذبيحة ” اهـ

ولا يخفى ما في الكلام الأخير من المنافاة لأداب الوحي الصحيح .

(١) شجر له ثمر كالبلوط .

فَادْخُلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ
رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ﴿٢٦﴾

و[النار] إذا أطلقت معرفة بالألف واللام أريد بها دار العذاب المعدّة للائسار بعد البعث والحساب . فإيراد كلمة [نار] في قوله ﴿فادخلوا ناراً﴾ منكرة مع عطف الفعل بالفاء التي تفيد التعقيب من دون مهلة ولا تراخ — قد يشعر بأن المراد بهذه النار التي أدخلها الله قوم نوح عقب الطوفان — ليست هي نار دار العذاب ، وإنما هي نار أخرى ، قيل هي عذاب القبر ، وروى عن الضحاك : أنهم كانوا يُغرقون من جانب ويُحرقون من جانب ، أولعل المراد بالنار التي أدخلوها ، وأسألمهم الغرق إليها — نار الخزي والخذلان ، نار الذل والهوان ، نار ألم النفس وعذاب الوجدان ، نار تتعذب بها كل أمة خالفت أمر ربها ، وتلاعبت بشرائع دينها ، واستمرت في عنادها وغشمتها حتى تقلص ظلها ، وتشتت شملها ، وأصبحت طعمة للطامعين ، وفعلاً ^(١) بقرقرة ، يلوسه السيد والقطين ، على أنه لا مانع من أن يراد بتلك النار نار العذاب الأخرى ، ويكون تنكيرها لتحويل أمرها ، كما يكون التعقيب بالفاء لإفادة قرب الإدخال وتحقيقه ، وكل آت مهما بعد قريب . وهؤلاء المكذبون الذين أغرقوا فأحرقوا لم يجدوا لهم أنصاراً ينصرونهم مما أَرَادَهُ اللهُ بِهِمْ مِنَ الْإِغْرَاقِ وَالْإِحْرَاقِ ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿فلم يجدوا لهم الخ﴾ .

ثم إن نوحاً عليه السلام لما رأى قومه غرق وقد خلت منهم الدار وعفت الآثار قال :
﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ .

[ديار] كلمة تقولها العرب في سياق النفي لإفادة تأكيد نفي وجود أحد من الناس . ومثلها قولهم "ما في الدار صافر، ولا فيها ناغ ضرمة" وأصل ديار ديوار فيعال من دار في الدار إذا ذهب وجاء فيها . يقول ما فيها متجول ، وقيل إن دياراً مشتقة من الدار نفسها ، فعني ديار صاحب دار ملازم لها مقيم فيها ، كما يقال مثلاً "جمال" لصاحب الجمال و"كرام" لصاحب الكرم .

وقول نوح (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) يريد (من الكافرين) الذين ساروا على سيرة قومي ، فليس المراد الدعاء عليهم بالاستئصال والاجتياح ، كيف وقد أصبحوا صرعى

(١) الفقع ضرب ردى من الكفاة يكون في القرقرة (وهي الأرض المنخفضة) لا يؤبه به ، ولا يجنيه أحد ، وإنما تدوسه الأقدام ، فضرِبَ مثلاً للستذل المتهن من الناس .

إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا ﴿٧٧﴾

تحت مواقع بصره ، وقد أراد بالدعاء هنا ما أراده في قوله السابق (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) ، فتكون آية (رب لا تذر الخ) شاهدا مؤيدا للغنى الذي قلناه في آية (ولا تذر الخ) من أن نوحا عليه السلام أورد الخبر عما أودعه الله هذا الكون من السنن التي لا تتخلف في الأمم الشاردة عن أمره — في صورة الدعاء ، فقوله (لا تزد) و (لا تذر) معناهما لا تفعل يارب إلا ما مضت عليه سنتك ، وسبقت به مشيئتك ، وهو بذلك يعلن التسليم إليه تعالى ، والاعتراف بأن ما قضاه في خلقه عدل ، وأن ما شاءه فيهم ماض نافذ لا معقب له .

ثم أتبع ذلك ببيان حكمة الله في إهلاك الكافرين فقال: ((إنك إن تذرهم)) أى إن تدع الأشرار يتمتعون بسلطتهم وسطوتهم ، ويتصرفون تصرف المستبد المطلق في ارتكاب المفاسد والمناكر ، ومخالفة شريعة العدل ، ونواميس الحق — ((يضلوا عبادك)) تستشير فتنتهم ، ويعظم فسادهم ، ويسر إلى بقية العباد المطيعين بهم ، المخالطين لهم ، فيفسدوا ويضلوا عن أمرك ومتابعة وحيك ، ولا سيما إذا تأهل الشر والفساد في أولئك الأشرار ، وأصبح ملكة راسخة في نفوسهم ، فإن خبثهم وفساد أخلاقهم ينتقل بالوراثة إلى أولادهم وذرائعهم ، فصار من مقتضى حكمتك يارب محققهم واستئصالهم جملة ، فإنك إن تركتهم يلدون وينسلون — نموا وكثروا ((ولا يلدوا)) إذا ولدوا وأعقبوا ((إلا فاكرا كفارا)) مثلهم .

و[الفجور] بمعنى الفسوق والعدوان وهو تجاوز الشرائع والحدود التي أمر الله بالوقوف عندها. وهنا مسألة وهى أن ذرارى قوم نوح الذين غرقوا هل هلكوا معهم ؟ وكيف أهلكوا وهم لم ينجوا ذنبا ولم يقتروا خطيئة من خطيئات آبائهم ؟

الظاهر أنهم هلكوا معهم ؛ لأن الكتاب قال فيهم (إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) وقال نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) الآية .

ولو قال قائل : إن هذا التعميم إنما هو بالنسبة إلى الكفار المكذبين مرتكبي الخطايا ، أما صغارهم فالكتاب سكت عنهم ، فنسكت معه ولا نخوض في أمرهم — ما كان في ذلك شاذا ولا نابيا . وما يلزمنا أن يكون تعالى قد أمد أولئك الأطفال بلطفه وتديره ، ويسر لهم بعض أسباب النجاة ، وكفى الله من أمثالها ، على أنه تعالى إن كان أهلك الأطفال المعصومين ، مع الكفار المجرمين — فإنه فاعل مختار لا يسأل عما يفعل ، نعم قد تخفى علينا نحن الحكمة في ذلك ، وخفاؤها

لا ينفي وجودها ، وإن في الأوبئة والطواعين التي تلم بالبشر فتستأصلهم مع ذراريهم استئصالا
وفي الزلازل التي تخسف الأرض وتخذلها فتبتلعهم جميعا ابتلاعا ، وفي البراكين التي تشور وتهيج
فتقذف الحمم والرماد بحيث تظمر البلاد التي حولها ، وتدفن تحتها سكانها كلهم كما روى لنا التاريخ
عن المدينتين الرومانيتين ”بومبي“ و”هركليوم“ — إن في كل ذلك مشابهة ومحاكاة بل نسخة
مطابقة لما وقع بقوم نوح كبارهم وصغارهم من الهلاك ، ويقال في تعليل هلاك هؤلاء ما قيل
في تعليل هلاك أولئك .

على أن النفس قد تتساءل هذا السؤال نفسه في الصغار الذين يموتون بأجلهم قبل أن يبلغوا
سن كمالهم ، وقد رأيت يوما امرأة تتحسر على موت صغير لها ، أمضا فقده ، وأسقمها بعده ،
فسمعتها تقول وقد شغصت بعينها إلى السماء مغرورقتين بالدموع : ”يا رب ما دمت تريد أن
تسلبني قبل أن تمتعني فيه فلماذا أعطيتني ؟“

هذا وأمثاله من العقْد التي تتعلق بمبتدأ هذه الكائنات ومنتهائها ، والحكمة في محوها بعد أن
خلقها وسواها . بل هو لعمري من القدر الذي أدبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بترك الخوض فيه : أخرج
الترمذى في سننه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : ”خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم
ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه الشريف كأنما فُقي في وجنتيه الرمان ، ثم قال
أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ،
عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه“ .

وكتب المقتطف (صفحة ٩٨ مجلد ٦١) بعنوان ”الحكمة الفائقة“ جوابا على سؤال جاءه من
البرازيل وهو ”جاء في الإنجيل أنه حينما ولد المسيح طلب الملك هيرودس أن يحضروه إليه ،
ولما لم يجده أمر أن يقتل كل الأطفال الذين عمرهم نحو سنة فكان كذلك ، فلماذا لم ينقذهم
المسيح؟“ فأجاب المقتطف بقوله : ”لا نعلم ، وفي الكون أمور كثيرة يظهر في بادئ الأمر أنها
مناقضة لقوانين العدل والاقتصاد حتى كأن الكون متروك لا مدبر له ، فالسمكة تبيض مليون بيضة
وقد تنفق كلها ، ولكن لا يعيش من أولادها إلا العدد القليل ، وأشجار البرية تبذر الشجرة منها
ألوف من البذور لحفظ نوعها ، وقد لا تزرع واحدة من بذورها ، ولكن إذا أمعنا النظر في تركيب
جسم السمكة وأوراق الشجرة وأزهارها رأينا من الحكمة الفائقة ما يدهش العقول ونضطر أن
نسلم بوجود حكمة فائقة في إثمار بيض السمكة وبذر الشجرة ولو لم يعيش منها شيء“ اهـ .

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

كأن نوحا عليه السلام يقول : أما وقد أهلك يا رب الظالمين بما كسبوا من الخطيئات ، وكذبوا بأياتك البينات ، وكان إهلاكك لهم عدلا ، وتنكيلك بهم حقا — فمن عدلك المنتظر ، وكرمك المؤمل — أن تغفر لفریق المؤمنين الذين أقروا بتوحيدك ، واستمسكوا بعرا دينك .

و[الغفر] الستر والصفح عن الذنب ، فالمؤمنون مهما تحزوا الحق والعمل الصالح قد يفرض منهم ما يؤخذون عليه ، فهم يتهلون إلى الله — كما وفقهم للإيمان والتوحيد — أن يغفر لهم ما ربما يبدر منهم مما لا يرضيه تعالى ؛ فبدأ نوح بنفسه ، ثم ثنى بوالديه لعظيم حقهما عليه ، وقد مر أن اسم أبيه "لامك بن متوشاخ" ، أما اسم أمه فهو "شمخابنت أنوش" ، ثم ثلث بمن دخل بيته مؤمنا ، وعنى بهم أولاده وأزواج أولاده الذين كانوا يدخلون بيته مشاركين له في معيشتة وعبادة ربه ، وفي التوراة أنه لم يكن معه في السفينة سوى زوجه وأولاده الثلاثة وأزواجهم الثلاث ثم ختم دعاءه بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات جملة واحدة ، ويومئ هذا من طرف خفي إلى أن هناك مؤمنين ومؤمنات غير جماعة بيته الذين نجوا معه في السفينة ، وعلى هذا فالطوفان لم يعم الأرض كلها ، ويكون في بعض جهاتها البعيدة مؤمنون ومؤمنات لم يعرفوا ، وقد دعا لهم نوح مع أهل بيته المذكورين ، أو يقال إن المراد بالمؤمنين والمؤمنات في دعاء نوح من وجدوا في الماضي أو سيوجدون في المستقبل متى تناسل أولاده وتكاثروا وانتشروا على وجه الأرض .

ونوح عليه السلام لم ينس أن المؤمنين والمؤمنات عرضة لأن يظلموا ويعتدوا ، ويتجاوزوا حدود الشريعة ، ويعملوا بغير طاعة الله ، فهو بعد أن طلب من الله المغفرة لفریق المؤمنين عاد فقال : أما إذا أحد منا معشر المؤمنين ظلم وحاد عن محجة الصواب ، وترك العمل الصالح وعثا في الأرض فسادا — فلا تتركه يا رب من معاملتك له بالعدل كما عاملت أولئك المكذبين المغرقيين فبئره وأهلكه ، بل زده تبارا وهلاكا كما أهلكتهم .

وهذا من نوح عليه السلام إيقاظ وتنبيه لأهله وولده وذويه وسائر من آمن بالله من الناس يحذره بطش الله وسخطه ، وانتقامه ممن خالف أوامرہ ، ونبذ العمل بشرائعه العادلة .

ولا ريب أن إغفال الإيمان عن التمهيد بالعمل الصالح وممارسة الفضائل — يمينه من الصدر
ويشئ الرين على القلب بالتدريج كما ورد في الحديث ، فتحق الكلمة على من هذا شأنه ، فيأخذه
الله بالعذاب كما أخذ أولئك المغرقين من قوم نوح ، فنوح يقول لقومه : لا تظنوا أن الله نجاكم
لذاتكم ، وإنما نجاكم لإيمانكم وعملكم الصالح ، فاحرصوا عليهما ، واجتهدوا في تقويتيهما وتقيتهما
وإلا حل بكم من الهلاك والتبار ، ما حل بأولئك المغرقين الفجار .

و[التبار] من تبر كفرح إذا هلك ، وتبره غيره كضربه وتبره أهلكه ، فتبار اسم مصدر ،
يقال : تبره تبريرا وتبارا ، كما يقال كلمه تكليما وكلاما ، وودعه توديعا وودعا .